

الحكمة



الدكتور محمد خير
الشعال

في المكتبات كتاب لابن الجوزي اسمه «الأذكياء». يقارب عدد صحائفه المائتين. ويحوي ثلاثة وثلاثين باباً. تكلم فيها المؤلف عن: فضل العقل. والعلامات التي يُستَدَلُّ بها على عقل العاقل وذكاء الذكي. ثم حديث عن شيء من ذكاء الأنبياء وذكاء سيّدنا محمّد ﷺ وذكاء صحابته الكرام. ثمّ لُحِّحَ من قصص ذكية عن الخلفاء والوزراء والسلاطين والقضاة والعلماء والعبداء والأطفال والنساء. ثمّ حديث عن الأجوبة المسكّنة واحترازات الأذكياء.

ففيه من أخبار القضاة: قال الشعبي: شهدتُ شُريحاً القاضي وجاءته امرأةٌ تخاصم رجلاً فأرسلت عينيهما فبكت. فقلتُ: يا أبا أمية. ما أظن هذه البائسة إلا مظلومة. فقال: يا شعبي. إن إخوة يوسف عليه السلام

«إنّ الحكمة تزيد الشريف شرفاً. وترفع المملوك حتى يجلسه مجالس الملوك»

منذ القدم ارتبط اسم الطبيب بالحكمة فهو طبيب وهو حكيم. يحسن القول والعمل مع أصناف مختلفة من الناس وفي أحوال متباينة. فضلاً عن إحسانه لمادته العلمية في معالجة الأدوية والوقاية منها.

والحكمة في اللغة: هي المنع لإصلاح. ومنها سُمّيت (حَكَمَةً الدابة). أي: لجامها؛ لأنها تمنعها من الخطأ في سيرها.

والحكمة في الاصطلاح: هي فعل أو قول ما ينبغي. في الوقت الذي ينبغي. على الشكل الذي ينبغي. وسُمّيت الحكمة حِكْمَةً لأنها تمنع صاحبها من الوقوع في الأخطاء.

جاؤوا أباهم عشاءً يبكون.

وفيه من أخبار الفقهاء: أن رجلاً كانت معه تفاحة. جاء بها إلى الإمام الشافعي. فقال له: لقد قلت: زوجتي طالق إن أكلت هذه التفاحة. وزوجتي طالق إن رميت بها ولم أكلها. فقال له الإمام الشافعي: كُلْ نصفها وارم نصفها الآخر.

والقراءة في كتب الذكاء والحكمة. وصحبة الحكماء والأذكياء. وكثرة ذكر الله تعالى تعين على تعلم الحكمة. بالإضافة إلى كثرة التجارب فقد قالوا: من حنَّكَتُهُ التجارب. وهذَّبته المذاهب. هو الحكيم.

ومن أبواب الحكمة: تحسين اللفظ وإلا فالصمت أولى.

وهذا بابٌ عظيم اعتنى به الأكابر والعلماء. وهو خاصَّة العقل والفتنة. فرُبَّ حربٍ وقعت من لفظة. وربَّ غنيمة كُسيبت في لحظة. والمرء مخبوءٌ تحت لسانه فإذا تكلم عرفته. ولسان العاقل من وراء عقله. فهو يفكر ثم يتكلم. بينما لسان الأحمق من أمام عقله. فهو يتكلم ثم يفكر فيما قال فيندم أو يُسرّ.

وأصل هذا الباب قوله تعالى: (وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا) [الإسراء:53].

وما يُحكى في هذا الباب: أن العباس عمَّ رسول الله ﷺ سُئِلَ: (أأنت أكبر أم رسول الله ﷺ؟ فقال: هو أكبر مني وأنا وُلِدْتُ قبله).

وسأل بعض الخلفاء ولده -وفي يده مسواك-: ما جَمَعُ هذا يا غلام؟ -أي كيف جُمِعَ كلمة مسواك- فقال: محاسنُك يا أمير المؤمنين. وكره الفتى أن يقول: مساويك.

ومنه: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج ليلة يتفقّد الرعية. فرأى ناراً موقدةً في خباء. فوقف وقال: يا أهل الضوء. وكره أن يقول: يا أهل النار.

ومنه: أنه كان لبعض القضاة جليس أعمى يكنى بأبي محمّد. وكان إذا أراد أن ينهض. قال القاضي: يا غلام. اذهب مع أبي محمّد. ولا يقول: خذ بيد أبي محمّد. مراعاةً لشأنه.

وعلى عكس تحسين اللفظ إساءة اللفظ. وهو من شيمه الحمقى والمغفلين. فقد ذكروا أن رجلاً عاد صديقاً له مريضاً. فقال له: ما

ثالثها: عَوِّدْ نَفْسَكَ أَلَّا تَسْتَعْجَلَ الْجَوَابَ وَالرَّدَّ، وَإِنَّمَا فَكَّرْ مَلِيحاً فِي الْقَوْلِ ثُمَّ قُلْ.

فَإِذَا لَمْ يُحْسِنِ الْمَرْءُ الْقَوْلَ فَالصَّمْتُ أَوْلَى. فَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَسْكُتْ» أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ

ر

وَإِذَا كَانَ الْكَلَامُ مِنْ فِضَّةٍ فَالْسَكُوتُ مِنْ ذَهَبٍ. وَمَرَاراً مَا نَدِمَ الْمَرْءُ عَلَى الْكَلَامِ. وَيَنْدُرُ أَنْ يَنْدِمَ عَلَى الصَّمْتِ. وَقَدْ قِيلَ لِرَجُلٍ: بِمَ سَادَكُمُ الْأَحْنَفُ؟ فَوَاللَّهِ مَا كَانَ بِأَكْبَرَكُمْ سِنًا وَلَا بِأَكْثَرَكُمْ مَالًا!! فَقَالَ: بِسُلْطَانِهِ عَلَى لِسَانِهِ.

وَبَلَّغْنَا أَنَّ الْحِكْمَةَ عَشْرَةَ أَجْزَاءٍ تَسَعَةُ مِنْهَا فِي الصَّمْتِ.

ومن أبواب الحكمة: كسب المودات و تجنب الخصام:

فقد ذكروا في صفات العاقل أنه يحبُّ الوئام والسَّلامَ، بينما من صفة الأحمق أنه يكثر الخصومات والمشاجرات. حتى قال العامة فيه: فلان يتشاجر مع نفسه. فتراه مخلصاً أباه وأمه، أخاه وأخته، جاره وشريكه، صديقه وعدوه...

ويخبرنا نقاد الأدب العربي عن الخطيئة

علَّتكَ. قَالَ: وَجَعَ الرِّكْبَتَيْنِ. فَقَالَ: وَاللَّهِ لَقَدْ قَالَ جَرِيرٌ بَيْتاً ذَهَبَ مِنْهُ شَطْرُهُ الْأَوَّلُ وَبَقِيَ الثَّانِي وَهُوَ قَوْلُهُ: (وَلَيْسَ لِدَاءِ الرِّكْبَتَيْنِ طَبِيبٌ). فَقَالَ الْمَرِيضُ: لَا بِشَرِّكَ اللَّهُ بِالْخَيْرِ لَيْتَكَ ذَكَرْتَ الشَّطْرَ الْأَوَّلَ وَنَسِيتَ الشَّطْرَ الثَّانِي.

وبيت جرير كاملاً:

نَحْيَا الْعِظَامَ الرَّاجِفَاتُ مِنَ الْبِلْيِ

وَلَيْسَ لِدَاءِ الرِّكْبَتَيْنِ طَبِيبٌ

وقال رجل: (دخلتُ مرة على بعض أصدقائي وفيهم مريض العين، وكان معي قريب لي، فقال قربي للمريض كيف عينك؟ فقال: تؤلمني. فقال: والله إن فلاناً ألمته عينه أياماً ثم ذهبت. قال: فاستحييتُ واستعجلتُ الخروج).

إساءة اللفظ دليلٌ على قلة العقل، وتحسين اللفظ دليلٌ على رجاحة العقل، ولكي تندرب على تحسين اللفظ أنصحك بثلاثة أمور:

أولها: أكثر من قراءة القرآن الكريم والحديث الشريف وكتب الأدب، فإنها تزيدك حسناً في لفظك وأدباً في قولك وحلاوة في منطقتك.

ثانيها: جالس أناساً حسنت أفاضهم، ولا تجالس من فحش قوله وطاشت كلماته.

-شاعر الهجاء- أنه كان يُتقن هجاء النَّاس: هجا أعداءه وأصدقائه. هجا الغرباء والأقرباء. حتى إنه هجا أمه وأباه. وزوجه وولده. وفي يومٍ من الأيام أراد الهجاء فلم يجد أحداً يهجوهُ فهجا نفسه. قال:
أرى لي وجهاً قَبَّحَ اللهُ شكله

فَقُبِّحَ مِنْ وَجْهِهِ وَقَبِّحَ حَامِلُهُ
ولشدة هجائه النَّاس وتسلطه بلسانه عليهم. أراد سيِّدنا عمر رضي الله عنه أن يقطع لسانه عقوبةً له. ثم خَفَّفَ عنه فَسَجَّنَه.

وعندما وصف اللهُ تعالى المشركين في كتابه قال عنهم: (بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ) [الزخرف:58]. أي كثيرو الخصومة وشديدو الخصومة. وقال رضي الله عنه: «أبغضُ الرِّجالِ إلى اللهِ الألدُّ الخِصم» أخرجهُ البخاري. أي: شديد الخصومة. حدَّثَ أحدُ أساتذة كلية الحقوق قال: إن بعض المحاصمات الموجودة في القصر العدلي اليوم يترافعُ عنها ورثةُ الورثة. أي: تَنقلُ الخصومة من جيل إلى جيل!

قيل للعتابي: (إنك تلقى النَّاس كلَّهم بالبِشر. قال: دَفَعُ ضغينة بأيسر مؤونة. واكتسابُ إخوان بأيسر مبدول).

قال أعرابيٌّ يمدح رجلاً بساماً:
أخ لك ما تراه الذَّهر إلا

على العِلاتِ بساماً جوادا
سألناه الجزيل فما تَلَكَّا

وأعطى فوق مُنبتنا وزادا
وأحسنَ ثمَّ أحسنَ ثمَّ عدنا

فأحسنَ ثمَّ عدتُ له فعادا
مراراً ما أعودُ إليه إلا

تَبَسَّم ضاحكاً وثنى الوسادا

العاقل من يتقن استخدام الكلمات والعبارات وَيُتَقِنُ فَنَّ كَسْبِ الموداتِ وَجَنِّبِ الخصومات.
وهذان بابان عريضان من أبواب الحكمة. ترى: هل لا يزال طبيبنا حكيماً.